●● الرّحالة العربى الكبير :

مثلما رغب الأوربيون فى استكشاف الأرض والدنيا من حولهم ، فإن نفس النزعة كانت موجودة لدى العرب . فبعض العرب قاموا برحلات طويلة شاقة وصلوا خلالها إلى بلاد الصين عن طريق البحر والبر معاً .. وبعض الرحلات اتجهت إلى الشمال وتقابل العرب مع جماعات الفايكن ومع الروس ، وفى القرن الثانى عشر وصل العرب إلى الدانمارك وإنجلترا .

أما أبرز وأشهر مستكشف ورحّالة عربى على الإطلاق فهو ابن بطوطة .

غادر ابن بطوطة موطنه فى مدينة طنجة المغربية وعمره حوالى ٢٢ سنة ، وخاض رحلة طويلة استغرقت نحو ٢٣ سنة وكانت رحلته تشتمل على زيارة الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة .. لكن عشقه للسفر والتجوال واستكشاف الأراضى الجديدة دفعه لخوض رحلة أخرى طويلة قطعت مسافة ٧٥٠٠٠ ميل ، زار خلالها شمال وشرق القارة الإفريقية ، والشرق الأوسط ، وروسيا ، والهند ، والصين ، وجنوب شرق آسيا .

خريطة توضح خط سير رحلة ابن بطوطة ابتداء من بلدته طنجة والتى ابتدأت فى سنة ١٣٢٥م وانتهت فى سنة ١٣٤٨م .

ووصف ابن بطوطة من خلال تلك الرحلة الطويلة جداً كثيراً من المشاهدات العجيبة مثل رؤيته لطائر عملاق .. وهو طائر الرُّخ الشهير الذى جاء فى حكايات سندباد .

وعندما وصل ابن بطوطة إلى بلده بعد تلك الرحلة الطويلة كان عمره ٤٥ عاماً . وقضى الأعوام الثلاثين التالية من حياته فى كتابة أحداث ومغامرات رحلته المثيرة !

أغرب ما رأى ابن بطوطة من خلال رحلته المثيرة : المكان الذى قتل به «قابيل» أخاه «هابيل» !

نحن نعرف أن قابيل قتل هابيل .. لكن أغلبنا لا يعرف مكان حدوث تلك الجريمة !

وخلال رحلة «ابن بطوطة» ببلاد الشام زار علماً من أبرز أعلام دمشق وهو جبل «قاسيون» وهو جبل يبلغ ارتفاعه حوالى ١٢٠٠ متر .. ويذكر مؤرخو دمشق عدداً وافراً من الأنبياء والشهداء المدفونين بين منحدراته وبين قاسيون .. ولذا فهو يعتبر جبلاً مباركاً . كما يوجد بهذا الجبل الغار الذى ولد به سيدنا إبراهيم – عليه السلام .. وهو غار مستطيل ضيق ، عليه مسجد كبير وصومعة عالية ، كما وصفه ابن بطوطة أثناء رحلته .

وذكر ابن بطوطة أنه شاهد مغارة بالجبل تُسمى «مغارة الدم» وعرف أن فوق تلك المغارة منطقة بالجبل كان عليها دم «هابيل بن آدم» – عليه السلام – وهى الموضع ٧٩ الذى قتله أخوه قابيل به ، ثم ألقى بجثته فى المغارة . وذكر كذلك أنه فى آخر جبل قاسيون مكان الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله فى قولة تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** ﴿٥٠﴾ ﴾ [**المؤمنون** : ٥٠] .

وأنها من أجمل مناظر الدنيا ..

وكان بها قصور وبساتين بديعة ..

وكانت تمثل رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها .

* حيوان الكَرْكَدَن العجيب !!

عندما وصل ابن بطوطة إلى بلاد الهند والسند اجتاز نهر السند ، وعند طرف النهر اضطر للمرور داخل حقل مزروع بالقصب ليعبر خلاله إلى الطريق الرئيسى ، وداخل الحقل ظهر له ولرفاقه حيوان ضخم مهيب اسمه الكركَدّن .. ووصفه ابن بطوطة بأنه حيوان نادر الوجود ، عظيم الجثة ، أسود اللون ، له رأس ضخم يفوق حجمه حجم بدنه ، وهو دون الفيل لكن رأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف ، وله قرن طويل يبرز من بين عينيه .

ولما خرج الكركدن على ابن بطوطة ورفاقه عارضه بعض الفرسان فى طريقه، فضرب أحد الخيول بقرنه الضخم فنفذ فيه وألقاه صريعاً ثم استدار عنهم وعاد إلى داخل الحقل من حيث أتى ، بينما استطاع ابن بطوطة ورفاقه الفرار من الجهة الأخرى للحقل حتى وصلوا إلى بر الأمان .

وذكر ابن بطوطة أن تلك المرة كانت المرة الثانية التى رأى فيها الكركدن ، إذ رآه من قبل حينما كان بصحبة ملك الهند يطوفون بالغابة وهم راكبون الفيلة.. لكنه فى تلك المرة تمكن رجال الملك من التصدى للكركدن حينما ظهر لهم، واستطاعوا قتله ، ثم قاموا بقطع رأسه الضخم وأخذوه هدية إلى الملك!

* أرض الرعب والهلاك !

فى بلاد الهند والسند خرج ابن بطوطة فى جولة برفقة قاضى مدينة هَرَاة واسمه «العادل علاء الملك الخراسانى» وانتهيا إلى أرض فضاء شاسعة على مسافة سبعة أميال اسمها منطقة «بتارنا» ، ورأى ابن بطوطة بتلك الأرض أكواماً مهولة من الحجارة على هيئة أجسام بشرية وبهائم ، وبعضها غير مكتمل الهيئة فتبقى منها صورة رأس أو رجل أو سواهما . وكان هناك كذلك حجارة صغيرة على شكل بعض الحبوب والبقول كالحمّص والفول . وفى طرف تلك الأرض رأى بيتاً من حجارة منحوتة وفى وسطه تمثال من حجر واحد لآدمى إلا أن رأسه طويل وفمه فى جانب من وجهه ، ويديه خلف ظهره كالمكتوف .. وإلى جواره مياه شديدة التعفُّن . وظهر على جدران المكان كتابة هندية .

ولما استفسر ابن بطوطة من علاء الملك عن تلك المشاهد الغريبة ذكر له حكاية غريبة ، فزعم أنه كان بتلك الأرض مدينة عظيمة ، تمادت أهلها فى الفسق

والفجور ، فحلت عليهم لعنة الله تعالى فمسخهم على شكل حجارة .. أما ملك تلك المدينة فمسخه الله تعالى على هيئة ذلك الآدمى طويل الرأس المشوّه . أما الكتابة الهندية فكانت تشير إلى ما رواه أهل المدينة عن أيام هلاكهم ، وعذابهم فى تلك الفترة لتبقى فى ذاكرة التاريخ .. وكان ذلك منذ نحو ألف سنة !

* السلطان العادل جداً !

من أغرب ما رأى ابن بطوطة من طبائع وعادات ببلاد الهند ، ما اتصف به السلطان «شمس الدين لَلْمش» الذى كان حاكماً لمدينة دهلى(*) حيث اشتهر بنزعته القوية للعدل وبغضه للظلَم . وأمر السلطان أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً ليعلن عن نفسه ، وكان الهنود فى ذلك الوقت يلبسون ثياباً بيضاء . فكان متى قعد إلى الناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ دعاه إليه لينظر فى مظلمته ، وينصفه ممن ظلمه ، ورأى «شمس الدين» أن بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل وأراد تعجيل إنصافهم ، فجعل على باب قصره أسدين مصنوعين من الرخام وموضوعين على برجين هنالك ، وفى عنقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير . فكان المظلوم يأتى ليلاً فيحرك الجرس ، فيسمعه السلطان وينظر فى أمره فى الحال وينصفه !

* الجزر العجيبة !

يعتبر ابن بطوطة من أوائل المستكشفين الذين طافوا بالبحر الهندى ، ووصلوا إلى جزر المالديف الواقعة فى جنوب غرب الهند ، والتى أطلق عليها العرب وقتذاك اسم «ذيبة المَهل» . ووصفها ابن بطوطة بأنها جزر عجيبة الشكل تضم نحو ألفى جزيرة صغيرة ، ويأخذ حوالى مائة منها شكل دوائر تكاد يتصل بعضها ببعض ، ولها مدخل كالباب تمر خلاله المراكب القادمة إلى الجزر . وإذا وصل مركب إلى إحداها فلابد له من دليل من أهلها ليرشده إلى سائر الجزر . وكل الجزر أهلها مسلمون ، ومقسمة إلى أقاليم ، لكل منها والٍ .

والناس فى تلك الجزر اعتمدوا فى طعامهم على صيد الأسماك ، حيث إنها خالية من الزراعة . والنوع المنتشر هناك اسمه «قلب ألماس» ولحمه أحمر ولا ذَفَر له . وبعد اصطياد سكان الجزر لهذا السمك يقطعونه إلى أربع قطع ،

(*) دلهى أو دهلى مدينة فى الهند قديمة جدا وهى اليوم قاعدة مقاطعة دلهى . واستولى عليها المسلمون فى القرن ١٢ وجعلوا منها عاصمة سلطنة دهلى .

ويطبخونه طبخاً خفيفاً ، ثم يعلقونه للدخان ، وحتى صار يابساً أكلوه . وهم يصدرون هذا النوع من السمك إلى الهند والصين واليمن .

*** رجال بأفواه كلاب !!**

وأثناء رحلة ابن بطوطة إلى جزيرة جاوا الإندونيسية ذَكَر أنه مرّ ببلاد تسمى «البَرهَنكَار» .. وهى جزر صغيرة بالمحيط الهندى بالقرب من جزيرة سومطرة الإندونيسية .. ورأى هناك أشكالاً غريبة من البشر . فذكر أن تلك الجزر كان يسكنها جماعة من الهمج لا دين لهم ، ومعهم طائفة من المسلمين من أهل بنجالة وجاوا .. وهؤلاء الناس كان لهم أجسام كحال معظم البشر إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب ، أما نساؤهم فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع ! ويسكنون فى بيوت على شاطئ البحر مبنية من أعواد القصب ، ومسقوفة بحشائش الأرض .. وهم عراة .. لا يستترون بشيء ، أما نساؤهم فيستترن بأوراق الشجر . ولهم كلام غريب لا يفهمه أحد إلا من عاشرهم . وتنتشر ببلادهم الأفيال وأشجار الموز .

●● هل وصل ابن بطوطة إلى القطب الشمالى ؟!

وصل ابن بطوطة إلى أقصى منطقة فى الشمال كانت مأهولة بالسكان ، أو ما يمكن اعتباره «مشارف المنطقة القطبية الشمالية» ، لكنه لم يدخل تلك المنطقة لعدم تزوده بالمئونة الكافية وعدم جدوى السفر إليها .. وهى التى كان يسميها العرب «أرض الظلمة» وحكى بعض مشاهداته فى أقصى الشمال قائلاً: «والسفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة بها ، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها فى الجليد ، ولا يدخلها الا الأقوياء من التجار» .

●●● نبذة عن ابن بطوطة :

- *من هو ابن بطوطة ؟*

«ابن بطوطة» .. هو الاسم الذى اشتهر به الرحّاله العربى «محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى» ، ولقبه «شمس الدين» وكنيته

«أبو عبد الله» ، كما لُقّب باسم «الطنجي» نسبة إلى نشأته ، ونشأة أجداده بمدينة «طنجة» فى المغرب ، حيث ولد بها سنة ٧٠٣ هجرية ، ولم يغادر بلاده إلا عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره ، حيث بدأ رحلته الشهيرة .

وعرف عن «ابن بطوطة» صفات كثيرة حميدة ، فكان رجلاً تقياً اشتهر بأعمال البر والإحسان على الفقراء والمساكين .

وكان يَذْكر أن أجلّ رحلة قام بها كانت زيارته «للكعبة المكرمة» ومسجد الرسول – عليه الصلاة والسلام – .. وقد حجّ فى حياته أربع مرات .

– ***ما هو عمل ابن بطوطة ؟***

كان ابن بطوطة يعمل بالقضاء ، وقد اشتغل قاضياً يحكم بين الناس فى بعض البلاد التى زارها ، وأمضى بها فترة طويلة . بالإضافة لذلك ، فقد كانت حلاوة حديثه وما يحكيه من غرائب وطرائف تجعل الملوك والأمراء فى البلاد المختلفة يعجبون به ، ويتسابقون لاستضافته ، وبذلك كان يجد فى كل بلد ينزل بها مكاناً يأوى إليه ، ويرحب بقدومه .

– ***تدوين رحلات ابن بطوطة :***

بعد عودة «ابن بطوطة» من رحلاته راح يحدّث الناس بما رآه من عجائب وغرائب فى تلك البلاد التى زارها ، فأثار شغف الناس ، وحبهم لسماعه ، فالتفوا حوله فى المجالس ، يحكى لهم عن أخلاق الناس وصفاتهم فى البلاد التى زارها ، وما رآه من عجيب صنع الله تعالى فى خلق الحيوان والنبات ، وكان الناس فيما قاله بين مصدق ومكذب ، لكنهم رغم ذلك كانوا يداومون على الاستماع إليه ، والالتفاف من حوله لحلاوة حديثه المليء بالإثارة والدهشة!

وذاع صيت ابن بطوطة فى البلد بأكملها ، واتصل به «السلطان أبو عنان» من بلدة «بنى مرين» وأعجب إعجاباً شديداً بما كان يرويه له ابن بطوطة من عجائب الأخبار ، فكلف السلطان أحد الكتاب وهو «محمد بن جزى الكلبى» أن يداوم على كتابة كل ما يرويه ابن بطوطة عن رحلاته حتي انتهى من كتابة ما رآه ابن بطوطة خلال رحلاته الثلاثة فى سنة ١٣٥٦م وسمى ذلك الكتاب الجامع للرحلات باسم : «تحفة النظار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار» .